



إنصاف بالمرأى



قُدّامة بن جعفر

الخراج وصناعة الكتابة

أ. نصر عارف

١ - المؤلف :

أبو الفرج قدّامة بن جعفر بن قدّامة بن زياد عاش في الفترة ما بين (٢٦٠ - ٣٢٧ هـ : ٨٧٢ - ٩٤٨ م) نوه عن حياته من المؤرخين والمترجمين ابن النديم صاحب الفهرست وإن كان بصورة ضئيلة لا تكفى لأن يكون الباحث عنه فكرة واضحة حيث يقول : « هو قدّامة ابن جعفر بن قدّامة كان نصرانيا وأسلم على يد المكتفى بالله . وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء من يشار إليه في علم المنطق وكان أبوه جعفر ممن لا تفكر فيه ولا علم عنده » .

وقد اتفق المؤرخون أن قدّامة كان نصرانيا وأسلم وأنه ذو مرتبة في العلم والفضل جالس ابن قتيبة والمبرد وثلعبا ، اشتهر بالكتابة والحساب والمنطق والبلاغة ونقد الشعر .

٢ - موقع هذا الكتاب بين كتبه :

لقدّامة بن جعفر ستة عشر كتابا بعد أهمها على الإطلاق الكتاب الذي بين أيدينا سواء من حيث ضخامته أو من حيث عمق فكرته وله كذلك نقد الشعر ، وكتاب السياسة وكتاب درياق الفكر وكتاب صناعة الجدل . ولم يحقق أو يطبع له إلا كتابان كتابنا هذا وكتاب نقد الشعر .

٣ - عرض الكتاب :

هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفها قدّامة بن جعفر ، رتبته على ثمانى ، منازل وقيل تسع منازل خصص كل منزلة لبحث موضوع مستقل وقد أيد ذلك جمهرة من الأقدمين . والذي بين أيدينا من هذا الكتاب المنازل الأربعة الأخيرة . أما المنازل الأربعة الأولى فلم تصل إلينا ولعل يد الحدثان قد امتدت إليها . وقد شملت هذه



والشرطة والأحداث وديوان الضرب والنقود والعيار والأوزان وديوان البريد والسكك والطرق إلى أقاصى المشرق والمغرب ومن هذا الباب الأخير في المنزلة الأولى ينتقل قدامة إلى المنزلة التالية التى خصصها للحديث عن جغرافية الدولة الإسلامية في سبعة أبواب يبدأها بالحديث عن شكل الأرض في الهيئة والقدر والمساحة والوضع والعمارة رابطا ذلك بعلم النجوم . ثم يتناول قسمة المعمور من الأرض سواء من حيث بدء العمارة على الأرض أو من حيث الشعوب والأجناس أو بين الممالك والدول متحدثا عن تقسيم الأرض المعمورة ابتداء من الصين وخراسان والخزر إلى النوبة والبربر والجزائر من البحار الشرقية والغربية . كذلك يتناول أجناس هذه المناطق وتركيبها الجسماني وألوانها وأخلاقها بصورة تقترب كثيرا من الجغرافية البشرية .

ثم يتناول وضع البحار من الأرض المعمورة ومسافتها والجزائر الموجودة فيها مركزا على البحر الممتد من بلاد الحبشان إلى بلاد الهند . ويقصد به المحيط الأطلنطى ثم يتحدث عن البحر الأخضر (الأطلنطى) وبحر الروح واصفا أهم الجزر والمضايق والخلجان .

ثم يتناول الجبال التى في المعمورة وعندها وأقدار المشهور منها وكذلك الأنهار والعيون التى في المعمورة وأعدادها وأوصافها ومقاديرها والعظام منها .

المنازل المفقودة - مما أشار إليه قدامة نفسه في المخطوطة - أمورا في غاية الأهمية . فالمنزلة الثانية ذكر أنه قد خصصها للبلاغة ووجه تعلمها والمنزلة الرابعة خصصها للحديث عن ديوان الإنشاء أو مجلس الإنشاء الذى كان يختص بالأمر الخارجية للدولة الإسلامية . أما المنزلتان الأولى والثالثة فليس لدينا أى دليل على ما عالج قدامة فيهما .

وقد ألف قدامة هذا الكتاب في القرن الرابع الهجرى بعد ٣١٦ هـ وقد نقل عن كتاب فتوح البلدان للبلاذرى وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه وكتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ، وذكر آراء كثير من الفقهاء كآبى حنيفة ومالك بن أنس وأبى يوسف وسفيان الثورى وغيرهم .

ويقسم قدامة كتابه هذا إلى منازل كل منزلة إلى أبواب متعددة مبتدأ بالمنزلة الخامسة حيث يتناول مجموعة من دواوين (مؤسسات) الدولة يبدأها بالحديث عن ديوان الجيش حيث يعرض لمجالس هذا الديوان وأعمالها واختصاصاتها بصورة لا يكاد يترك شيئا سواء من حيث تنظيم الديوان ومجالسه أو تنظيم أفرادهم ومراتبهم ورواتبهم حتى تنظيم دواب الجيش وأنواعها ومخصصاتها . كذلك وعلى نفس المنوال يتناول ديوان النفقات وديوان بيت المال وديوان الرسائل وديوان التوقيع والدار وديوان الخاتم وديوان الفضى وديوان المظالم

وبعد ذلك يتحدث بصورة مفصلة عن مملكة الإسلام وأعمالها وهنا نجد يشمل بحديثه جميع بلاد الإسلام سواء في المشرق العباسي أو المغرب الأموي متناولا جميع الأبعاد السابق الحديث عنها في وصف البحار والأنهار الخ ثم ينهي هذه المنزلة بالحديث عن ثغور الإسلام والأهم المحيطة بها وذلك بصورة مفصلة تتناول الثغور البرية والثغور البحرية . ويذكر قدامة سبب تناوله لهذه الموضوعات أنه على من يكتب للحاكم أن يحيط علما بهذه الأمور حتى يليق بهذه المرتبة .

وفي المنزلة السابعة يتناول قدامة كل مايتعلق بمالية الدولة الإسلامية مركزا بصورة جوهرية على مصادر دخل بيت المال متناولا ذلك على مدى تسعة عشر بابا مبتدأ ؟ هذه المنزلة بقوله « ينبغي أن يعتقد أن الشريعة أصل وأن الكتابة فرع من فروعها لأن أخذ الكتابة الدال على معانيها هو أنها صناعة تعنى بجباية الأموال وسياسة الملك وإذا كان الملك لا قوام له إلا بالدين فقد وضع أن الكتابة فرع من فروع الدين ... وقد رأيت قوما يظنون أن الكتابة مباينة لأحكام الشريعة وذلك مخالف لما يوجب المعقول إذ كان ما هو فرع لشيء لا يباينه فليست أحكام الكتابة مناقضة لأحكام الشريعة » :

ثم يبدأ الحديث عن مجموع وجوه الأموال التي تجبها الدولة متناولا كل وجه من هذه الوجوه بصورة مفصلة مبتدأ بالحديث عن الفئ وهو أرض العنوة ثم

أرض الصلح وهي أرض الخراج ثم أرض العشر ثم إحياء الأرض واحتجازها ثم عن القطائع وماأصفاه عمر من أرض السواد ثم عن المقاسمة والوضائع ثم عن جزيرة رؤوس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم ثم أخماس الغنائم ثم المعادن والركاز والمال المدفون ثم ما يخرج من البحر . ثم يتحدث عما يؤخذ من أموال تجار المسلمين وأهل الذمة والحرب التي يمرون بها ثم يتحدث عن اللقطة والضالة وما يجري مجراها وكذلك موارث من لا وارث ثم عن الشرب ويقصد به الرى سواء من الأنهار أو الآبار . وفي الباب الثامن عشر من المنزلة السابعة يتحدث قدامة عن وجوه الإنفاق من بيت المال سواء كان لإخراج مال الصدقة ومن يحل له ومن يحرم عليه . ويفرد الباب التاسع عشر بصورة مطولة عن فتوح النواحي والأمصار مبتدأ من فتوح بنى النصر من اليهود إلى الفتوح الإسلامية في عصره وذلك في سياق الحديث عن أموال الأقوام الذين فتحت أرضهم وما يجب على ولي الأمر أن يسلكه لإزائها وما يحل منها وما يحرم .

وفي المنزلة الثامنة التي يخصصها قدامة للحديث عن الاجتماع الإنساني على مدى اثني عشر بابا مبتدأ بالحديث عن حاجات الإنسان الضرورية سواء من غذاء أو كساء أو تناسل ثم الدوافع التي حدت بالإنسان أن يكون المدن والمجتمعات ومن ذلك ينطلق قدامة بن جعفر للحديث عن تنظيم



على علم واحد من العلوم وإن كان يفيد بالدرجة الأولى الباحث في العلوم السياسية حيث يستطيع أن يعتمد على هذا الكتاب كمرجع أساسي في الجزء الأول منه عند الحديث عن الدواوين (المؤسسات) وكيفية تنظيمها ووظائفها والاختصاصات الممنوحة لها . وكذلك الجزء الأخير حيث الحديث بصورة مباشرة عن علم السياسة بعد أن وضع المقدمات المنطقية لضرورة وجود المجتمع السياسي .

كذلك فإن الباب الثاني منه يمكن القول إنه رغم تناوله المباشر للظواهر الجغرافية سواء الطبيعية أو البشرية إلا أنه يمكن الاعتماد عليه ولو كمرجع فرعى عند التطرق إلى البعد الجغرافي للاستراتيجية العسكرية في تلك الفترة .

كذلك الجزء الثالث مرجع أساسي في الاقتصاد الإسلامي خصوصا ما يطلق عليه في علم الاقتصاد المعاصر المالية العامة للدولة .

الدولة بعد أن عرض المقدمات المنطقية التي توجب إيجاد الدول .

وهنا نجد أنه يركز بصورة رئيسية على أهمية إحاطة الحاكم بعلم السياسة حتى يكون أهلا لذلك وبعد ذلك ينتقل للحديث عن أخلاق الملوك أو ما يمكن أن يطلق عليه أدب النصيحة .

ويفرد بابا خاصا للحديث عن شروط ومؤهلات خدم الملك ومن يحيط به حتى يأمن شر الغواية والإفساد . ثم يتحدث عن أسباب بين الملك والناس إذا التزم بها زادت محاسنه وانصرفت المعاييب عنه وتمكنت له سياسته . وأخيرا يتناول قدامة بن جعفر كيفية وشروط استئجار الوزراء وما يحتاج إليه الملوك منهم وما يلزم الملوك أن يسلكوه تجاههم .

٤ - الكتاب وتصنيفات العلوم :

وأخيرا فإن هذا الكتاب رغم تعدد مشاربه وتشعب العلوم التي تحدث عنها إلا أنه يمكن القول إنه مهم للباحثين في جل الموضوعات التي تناولها فهذا الكتاب نظرا لاهتمامه بالكتابة لا يمكن القول إنه ينصب

